مقياس قانون العلاقات الدولية

المستوى: سنة ثالثة التخصص: قانون عام

المحاضرة الثانية: تطور مفهوم الدبلوماسية

تضرب الدبلوماسية بجذورها في عمق التاريخ واستمرت في التطور منذ العصور القديمة لتكتسب مع مرور الأزمنة خصائص وسمات جديدة تتماشى وكل مرحلة من المراحل، وعلى هذا الأساس فإن دراسة المفهوم الحديث للدبلوماسية لن تتم إلا من خلال تتبع نشأة هذه الفكرة وتطورها بدءا من العصور القديمة مرورا بالعصور الوسطى وصولا إلى مضمونها في الوقت الراهن.

1- الدبلوماسية في العصور القديمة:

في الحضارات القديمة عرفت المدن اليونانية والرومانية وحضارات الشرق القديم اتصالات بين مختلف المدن والمقاطعات، وكان لهذه الحضارات رغم اختلاف نظرتها للعلاقات مع غيرها من المجتمعات الفضل في إرساء دعائم وأسس الاتصال بين الشعوب والمجتمعات.

1-1 الحضارة اليونانية:

لقد شمل الإرث الإغريقي مفاهيم من قبيل الحياد وأساليب من قبيل التحكيم وممارسات من قبيل الحصانة الدبلوماسية للرسل وتزويد المبعوثين بأوراق اعتماد، ورغم أن الدبلوماسية لم تكن دائمة لدى الإغريق إلا أنها اكتسبت عندهم أهمية بالغة بسبب النظام السياسي الذي كان سائدا آنذاك، والقائم على نظام المدينة الذي يعد النواة الأولى لظهور الدولة في شكلها الحديث، وكان للقواعد التي أرستها هذه المدن الفضل في إرساء نظام الحصانة الدبلوماسية والبعثات.

1-2/ الحضارة الرومانية:

عرفت الدولة الرومانية الموحدة قبل انهيارها عام 476م اعتقاد الرومان بسموهم عن بقية الشعوب وبحقهم في السيطرة عليهم، وقد كانت العلاقات بين روما وبقية الشعوب علاقة حرب دائمة، ولم تعرف العمل الدبلوماسي إلا في شكل تحالفات مع بعض الوحدات السياسية لأغراض دفاعية تمكنها من التفرغ لاحتلال شعوب أخرى، ورغم فشل الرومان في تطوير نظرية الدبلوماسية إلا أنهم عرفوا نظام المعاهدات مع الشعوب المغلوبة وعرف عنهم احترامهم للعهود والمواثيق وإرسال المبعوثين واستقبالهم، وبرز هذا النظام أكثر في مرحلة

فقدان الإمبراطورية الرومانية لقوتها وسيطرتها على الشعوب الأخرى، لتظهر مع بداية تفككها أسباب العلاقات الدبلوماسية.

3-1 حضارات الشرق القديم:

إن المتتبع لتاريخ هذه الشعوب يجد أن عقد المعاهدات والتحالفات كان من المسائل المألوفة، فالوثائق التي عثر عليها في مصر عام 1889 وتتكون من 750 رسالة تعود إلى منتصف القرن 14 قبل الميلاد تبادلها البلاط المصري للأسرة الثامنة عشر مع دول أخرى في الشرق الأدنى القديم بعضها مستقل وأكثرها تابع، وتقدم هذه الوثائق أدلة على وجود شبكة دبلوماسية واسعة النطاق وذات مستوى متقدم من الحركية والالتزام بالشكليات والرسميات.

أما في الصين القديمة فقد ارتبطت الدبلوماسية بنظرة الصينيين القدماء الفلسفية، وأصبغ عليها نوع من القدسية النابعة من الديانة البوذية والبراهمية، حيث دعا الفيلسوف (كونفوشيوس) في القرن 16 قبل الميلاد إلى اختيار مبعوثين دبلوماسيين يتحلون بالفضيلة ويختارون بناء على الكفاءة ودعا الفيلسوف (كوانج شينغ) إلى اللجوء للوسائل السلمية بدل الحربية وطالب بتخصيص ثلثي الميزانية للإنفاق على البعثات والاتصالات الدبلوماسية.

واختلفت نظرة الهنود للأجانب حيث اعتبروهم أعداء ومحاربتهم أمر واجب، وقد ركزوا لهذا الغرض على الجوسسة وإقامة التحالفات في عملهم الدبلوماسي، وباتت المهمة الأولى للمبعوثين الهنود استقصاء المعلومات عن الشعوب الأخرى مثلما أكدته نصوص (آرتار ماستراس) الدينية، وتشير قوانين الهند القديمة إلى واجب الملوك في تعيين السفراء من بين الرجال الذين يتمتعون بالمكانة الطيبة والشرف والقدرة العالية على تمثيل بلادهم، والقابلية العالية لفهم همسات محدثيهم وإشاراتهم وتعابير وجوههم، وهي بالضبط صفات الدبلوماسي في الوقت الحاضر.

2- الدبلوماسية في العصور الوسطى: بدأت هذه الفترة منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية في عام 476 م، وامتدت حتى العصر الحديث المبكر الذي شهد قيام الدولة الملكية وبداية الاكتشافات الجغرافية الأوروبية، وتبقى أهم المحطات التي ساهمت في تطور العمل الدبلوماسي خلال هذه الحقبة الإمبراطورية البيزنطية وكذا الدولة الإسلامية.

2-1/ الدبلوماسية في الإمبراطورية البيزنطية:

استمرت الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من ألف سنة منذ 476م وحتى 1453م، وبخلاف أسلافهم الرومان أيقن البيزنطيون أن فض الخلافات بالقوة وحده لا يكفي، فلجؤوا إلى ابتكار أساليب جديدة تقوم على محاولة إضعاف الشعوب والقبائل البرابرة من خلال نشر

التفرقة بينهم وإيقاع الخصومات مستخدمين في ذلك عنصر التحري وجمع المعلومات عن أسرار الدول من خلال مبعوثين دبلوماسيين مهمتهم الوقوف على مواطن الضعف فيها من خلال عمليات المراقبة والاستطلاع، وأنشئ في القسطنطينية ديوان خاص للشؤون الخارجية من أجل تدريب الدبلوماسيين المفاوضين، واهتمت بيزنطة اهتماما زائدا أيضا بموضوع المراسيم وإجراءات الحماية والحصانة وحسن استقبال السفراء.

2-2 الدبلوماسية في الإسلام:

عرف العرب الدبلوماسية قبل الإسلام بحكم موقع شبه الجزيرة العربية كملتقى طرق للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب (رحلة الشتاء والصيف)، ومع مجيء الإسلام كديانة عالمية ورسالة شاملة مصداقا لقوله عز وجل " وقد أرسلناك رحمة للعالمين" (الأنبياء 107)، جاءت مبادئ الإسلام داعية إلى الوئام والسلام كقاعدة أصلية والحرب كاستثناء في حالة الدفاع ضد العدوان أو الهجوم لمنع نفوذ القوى الأخرى (الفتوحات)، وفي نشره لرسالة الإسلام اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بإيفاد مبعوثين إلى القبائل العربية وإلى الإمبراطوريات الكبرى كالروم والفرس والحبشة مهمتهم التلبيغ برسالة محمد ص ونشر تعاليم هذا الدين.

ومع توسع الدولة الإسلامية وحرصا على نشر قيم الدين الإسلامي أيقن الخلفاء وبعدهم أمراء الدولة الإسلامية في كافة مراحلها بأهمية الوعي الحقيقي بالعلاقات مع بقية الشعوب والأمم وبناء منظومة متوزانة على أسس دبلوماسية حكيمة، قسمت قواعدها إلى نظامين يتعلق أحدهما بالعلاقات السلمية (قواعد السير) والآخر يضبط العلاقات الحربية (قواعد المغازي)، وبالغ المسلمون في الشروط الواجب توافرها في سفرائهم كالوسامة وحسن المظهر ورجاحة العقل والفصاحة والذكاء والعلم بالشريعة وسعة الثقافة.

4/ الدبلوماسية الحديثة: بدأت هذه المرحلة بعد القرن 15، حيث تطور نظام البعثات الدبلوماسية الدائمة في إيطاليا ولا سيما في مدينة البندقية ثم انتشر في بقية المدن الإيطالية، فأسس البابا (ليوف العاشر 1513) أول نظام سفراء لدى الحكام في ألمانيا، فرنسا، انجلترا، وكانت البندقية ترسل سفراءها إلى الجمهوريات الأخرى ليقيموا فترة مابين 3 إلى 4 أشهر، ثم انتقل نظام البعثات الدبلوماسية تدريجيا إلى شمال القارة الأوروبية.

ولعل معالم النظام الدبلوماسي الحديث بدأت في الظهور منذ مؤتمر واستفاليا 1648 الذي أقر مبدأ ميزان القوى لأول مرة وشكل أول محطة للدبلوماسية الجماعية أو البرلمانية حينما اجتمعت الدول الأوروبية جميعها لمناقشة مشكلة الحروب الدينية التي أنهكت القارة الأوروبية، واستمر هذا النظام في التطور بعد الثورة الفرنسية حتى أصبح التمثيل الدبلوماسي الدائم من الحقوق المقررة لكل دولة ذات سيادة، وما يلاحظ على هذه المرحلة

الأولى من العصر الحديث أن نظام التمثيل الدبلوماسي كان لا يزال مرتبطا بشخص الحاكم أكثر من ارتباطه بسيادة الدولة وكانت الوظائف الدبلوماسية وفقا لإرادة الحاكم وتتسم بالسرية وتنحصر في المراقبة والاستطلاع بهدف المحافظة على ميزان القوى.

وتعتبر مرحلة مابعد مؤتمر فيينا 1815 وحتى الحرب العالمية الأولى من أكثر المراحل عملا على تحديد قواعد العمل الدبلوماسي التي أصبحت فيما بعد ملزمة للدول، حيث تم التركيز على الأعراف التي كانت سائدة من قبل والتي لعبت دورا أساسيا في تصنيف المبعوثين الدبلوماسيين ومراسيم استقبالهم وأدائهم لمهامهم، وهي المرحلة التي برزت فيها أيضا الصفات الشخصية والقدرات والمؤهلات التي يتمتع بها السفراء، وطغت فيها الدبلوماسية السرية والتنافس الاستعماري لحماية وتقاسم النفوذ.

أما المرحلة الثالثة فقد كانت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وانعقاد مؤتمر الصلح عام 1919 الذي برز معه فاعل جديد في العلاقات الدولية وهو المنظمات الدولية ممثلة في عصبة الأمم ومظمة الأمم المتحدة فيما بعد (1945) التي أحدثت ثورة في العمل الدبلوماسي حين جعلته النظام الوحيد في تسيير العلاقات بين الدول بعيدا عن القوة العسكرية والنزاعات المسلحة، واستمرت الدبلوماسية في التطور مع تقدم وسائل الاتصال وتعاظم أهمية الرأي العام وظهور النظم الديمقراطية الحديثة التي تقوم على المشاركة الشعبية، وأصبح الدبلوماسي ممثلا لدولته لا لشخص رئيسها ودشن عهد جديد في العلاقات الدولية سمته التفاوض والتعاون لتوطيد العلاقات الودية والمحافظة على السلم والأمن الدوليين، واتسع دور البعثات الدبلوماسية ليشمل كافة مناحي الحياة الدولية.

ثانيا: تعريف الدبلوماسية:

الدبلوماسية كلمة يونانية الأصل، وهي مشتقة من لفظ " Diploma" المشتق من الفعل " Diplom" ومعناه يطوي، وهي تدل على الوثيقة التي تصدر عن أصحاب السلطة والرؤساء السياسيين للمدن التي يتكون منها المجتمع اليوناني القديم وتمنح لحامليها امتيازات معينة، كما استخدمها الرومان بعد ذلك كإشارة إلى وثائق السفر المعدنية المختومة والمطوية ومع مرور الزمن أصبح هذا المعنى يشمل الوثائق الرسمية والأوراق والمعاهدات، ثم فيما بعد على الأشخاص الذين يعملون في تبويب هذه الوثائق وحل رموزها وحفظها أو ما يطلق عليهم بأمناء المحفوظات، وظل هذا المفهوم هو السائد حتى أواخر القرن الخامس عشر، و لم يتم استخدام لفظ الدبلوماسية بمعناه الحديث وهو إدارة العلاقات الدولية إلا في أواخر القرن الثامن عشر وتحديدا في العام 1796 حين استخدمت كلمة " Diplomacy " في

انجلترا للدلالة على ممثلي الدول الأجنبية اللذين يحملون كتب اعتماد من دولهم، كما عرفت عند قيام الثورة الفرنسية بمعنى التفاوض و عرف الدبلوماسي بأنه المفاوض.

ومن الناحية الاصطلاحية فقد اختلف الفقهاء في تعريفهم للدبلوماسية وتعددت التعاريف الموضوعة لهذه الكلمة، فقد استخدمت للدلالة على معان مختلفة، لعل أقدمها تعريف الخليفة معاوية بن أبي سفيان حين قال :"لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت، إذا أرخوها شددتها وإذا شدوها أرخيتها"، وفي هذا القول وصف عميق للدبلوماسية والدبلوماسي لما فيه من المرونة للوصول إلى تحقيق الهدف والحرص على استمرار العلاقات وعدم انقطاعها، ومن التعريفات التي صيغت للدبلوماسية أيضا نذكر:

- تعريف قاموس أكسفورد الذي تبناه Harold Nicholson بأنها:" إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات والأسلوب الذي يستخدمه السفراء والمبعوثون لإدارة وتسوية هذه العلاقات، وهي وظيفة الدبلوماسي أو فنه."
- تعريف الفقيه Rivier بأنها :" علم تمثيل الدول وفن إجراء المفاوضات"، ووافقه في ذلك الفقيه Charles de Martens حن اعتبر الدبلوماسية :" علم العلاقات وبمعنى أدق علم وفن المفاوضات."

أما الفقهاء العرب فقد وضعوا بدورهم مجموعة من التعاريف نذكر منها:

- تعريف الأستاذ أبو هيف:" علم وفن تمثيل الدول وإجراء المفاوضات عن طريق ممثلين معتمدين لهذا الغرض"، ويحدد عمل الدبلوماسية في ثلاثة أوجه هي مراقبة مجريات الأمور والحوادث، حماية مصالح الدولة، والمفاوضة في كلما يهمها.
- الأستاذ سموحي فوق العادة فيعرفها بأنها:" مجموعة القواعد والأعراف الدولية والإجراءات والمراسم والشكليات التي تهتم بتنظيم العلاقات بين أشخاص القانون الدولي أي الدول والمنظمات، والممثلين الدبلوماسيين مع بيان مدى حقوقهم وواجباتهم وشروط ممارستهم لمهامهم الرسمية، والأصول التي يترتب على إتباعها تطبيق أحكام القانون الدولي ومبادئه، والتوفيق بين مصالح الدول المتباينة كما هي، وفن إجراء المفاوضات السياسية في المؤتمرات والاجتماعات الدولية وعقد الاتفاقات والمعاهدات".
- الأستاذ عز الدين فودة فيرى بأن الدبلوماسية إلى جانب كونها فنا باعتبارها أسلوبا في العمل، فهي علم أصبح له تاريخه وقواعده ونظمه في تسيير العلاقات بين الدول، وكما أنها قانون يدخل كثير من نظمه في عداد القواعد العرفية المكونة لجزء هام من القانون الدولي والقانون الداخلي أحيانا.

وخلاصة القول أنه يجب التمييز بين بعدين أو نطاقين أساسيين حين الحديث عن الدبلوماسية ، وهما النطاق أو البعد الشخصي الذي يتعلق بشخص الممثل الدبلوماسي والذي استخدم فيه الفقهاء عبارة " فن" لما يجب أن يتحلى به نتيجة لحساسية وخطورة مهمته من دقة الملاحظة والذكاء والفطنة والكياسة، والبعد الموضوعي للعلاقات الدولية كونها علم يعنى بالعلاقات بين الدول والمنظمات والحركات التحررية وباختصار الأشخاص التي لها بموجب القانون الدولي أن تمثل وتتمثل لدى غيرها.